الاتِّصالُ الخطابيّ عند المسلمين
دراسة تاريخيَّة

عوض إبراهيم عوض *

مُقَدِّمَة

درج علماء الاتصال والمهتمون بأمره على تقسيم وسائل الاتصال إلى قسمين رئيسين هما الاتصال الإلكتروني والاتصال المكتوب. ويتفرع هذان القسمان ليشملا معظم أساليب الاتصال الذي يصل إلى المتلقي من خلال أجهزة الاتصال والإعلام، ولكنهما لا يشملان جميعَ أنواع الاتصال. ومن حيث الشكل التعبيري درج العلماء على تقسيمه إلى ثلاثة أقسام هي: المقروء، والمسموع، والمُشاهَدْ. وواضح من هذا التقسيم أنه التزم بالتعريف الكلاسيكي لوسائل الاتصال الذي قدمه كل من: هارولد لاسويل Harold Laswell، وولتر ليبمان Walter Lippman والذي استنبط منه دي فلير DeFluer وراكيش Rocheach لاحقاً إحدى مقومات عملية الاتصال الجماهيري التي اقتضت توافر أربع خصائص أساسية هي:

١ - أن تكون الرسالةُ سريعة، ٢ - وأن تصل إلى كل المتلقين في وقت واحد، ٣ - وأن تصل عن طريق قناة ، ٤ - وأن تكون العمليةُ الاتصاليةُ ذاتَ بُعدٍ دلالي. ومن خلال هذا التعريفِ أدرج علماء الاتصال كل الأشكال المتعارف عليها بحكم توافر هذه السمات فيها، إلا أنهم أغفلوا دور المسلمين

---

* دكتوراه في وسائل الاتصال الجماهيرية من جامعة الملايو ١٩٩٦م، وأستاذ الإعلام المساعد بالجامعة الإسلامية العالمية بكوالا لمبور، ماليزيا.

الذين اعتمدوا هذا الشكل المهم من أشكال الاتصال والذي قامت عليه الحضارة الإسلامية ذاتُ الجذور الراسخة والأبعاد المؤثرة في خارطة الفكر والسلوك الإنساني خلال خمسة عشر قرناً من الزمان. حيث بلور المسلمون هذا الشكل الاتصالي والذي عرفوه بفن (الخَطابة).

ولذلك كان لزاماً علينا بوصفنا مختصين في علوم الاتصال أن نلفتَ انتباه العالم إلى هذا الدور المهم لتعريف الناس به كأحد أهم الاستخدامات الإعلامية في التاريخ التي غيَّرت المفاهيم وغرست كثيراً من القيم التي دعا إليها علماء الاتصال بحكم أنَّ الخطابة الإسلامية هي الشكلُ الوحيد بين أشكال الاتصال الذي توافرت له الأبعاد الأساسية الثلاثة لمفهوم العلاقة الإنسانية وهي البعد النفسي، والبعد الثقافي، والبعد الاجتماعي. وباستقصائنا لدور الخطابة الإسلامية وجدنا أنها أدَّت دوراً اتصالياً أساسياً ومهماً منذُ نشأتها، على الرغم من أنَّ الخطابة قد عُرفت قبلَ قرونٍ طويلة من مجيء الإسلام. وهذا على عكس الدول الأخرى التي عَرَفَتْ فَنَّ الخطابة ومارسته بدون استخدامه إعلامياً بالحنكة التي فعلها المسلمون، وذلك لأسبابٍ تاريخية وفنية سنعرضُ لها بالتفصيل في سياق هذه الورقة البحثية.

وهذه المفارقة في استنباط خصائص الخطابة واستخدامها إلى أقصى حد في تشكيل مفهوم الدولة وإبراز البُعد الرسالي للإسلام بوصفها ثقافةً حضارية هي التي جعلتنا نزعم أنَّ الخطابة بشكلها الإسلامي (وسيلة اتصال) وليست (وسيلة تعبيرٍ فنية) فقط كما تصورها بَعضُ السابقين والمُحدثين من العلماء.

ولكن قبل الخوض في تفصيل هذا الأمر نود أن نشير إلى نقطةٍ مهمة لمسار هذه الدراسة وهي أنَّ بعضَ العلماء قد اعتبروا الخطابة جزءاً من علم المنطق، وقد أشار إلى ذلك (ابنُ سينا) حين قال: (إنَّ الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر في أقسام المنطق لأنَّ المقصود من المنطق أن يُوصل إلى التصديق، فإن أوقع التصديق يقيناً فهو البرهان

وإن أوقع ظناً أو محمولاً فهو الخطابة) ✸. وبعد ذلك دلف (ابنُ سينا) إلى قيمة الخطابة فأكد أنها صناعةٌ عظيمة النفع بحكمٍ أنَّ الأحكام الصادقة فيما هو عدل وحسن أفضل نفعاً وأعم على الناس من أضدادها، لأنَّ نوع الإنسان يعيش بالتشارك، ويحتاجُ إلى التعامل والتحاور، وهما يحتاجان إلى أحكام صادقة، وهذه الأحكام الصادقة تحتاج إلى أن تكون مقررة في النفوس، ممكنة في العقائد. وإذا كان البرهان قليل الجدوى في حمل الجمهور على الحق فإنَّ الخطابة تستطيعُ أن تفعل ذلك.[١]

ولهذا السبب انبرى نفرٌ من الكتاب المسلمين لمحاولة بلورة هذه الأدوار مقروءةً مع إفرازات الجدل الفكري الذي ظَلَّلَ سَنوات القرن العشرين بظلال من التشكيك في أحقية الخطابة أساساً للتوصيف بوصفها إحَدى أدوَات المعرفة. وقدْ أفرز ذلك الجدل شيئاً من الصراع جعل حمية الدفاع عن التراث هي الغالبة في كتابات العديد من الباحثين. ولكننا نستطيعُ أن نُثمن إسهامات خمسة من الكتاب المسلمين الذين حاولوا إجلاء هذا الأمر، على الرغم من أن بعضهم قد أدخله في إشكاليةٍ أخرى وهي إشكالية التصنيف والترتيب ضمن العلوم المعرفية.

ومن هؤلاء الكتاب الشيخ محمد أبو زهرة، والأستاذ محمد عبد الغني حسن، والأستاذ عبد الجليل عبده شلبي، والأستاذ علي محفوظ، والأستاذ أنيس المقدسي. فقد انصبَّ معظم جُهد هؤلاء الكُتاب المُجَودين في إطار الطرح الأسلوبي للخطابة وأشكال استخدامهاَ بوصفها إحدى فنونَ الثقافة الإسلامية. إلا أنهم جميعاً تجنبوا التركيز على بُعدها الاتصالي الذي هو أهم أبعادها على الإطلاق. وربما كان السبب هو عدمُ إدراكهم لهذا البُعد أو عدم اهتمامهم به بحكم عدم الاختصاص في العمل الاتصالي والإعلامي مما جعلهم يغفلونه تماماً.

وأهمية هذه النقطة هي أنَّ الأمم التي جاءت لاحقاً لاسيما الغربيين قد وظَّفوا هذا العنصر الاتصالي للخطابة والذي أزكى شرارتَه الإسلام لخدمة أغراضهم السياسية رغماً عن مخالفتهم البينة لرؤية الإسلام لقضية الحكم وقضية الإعلام. وهذا هو التحدي الذي نريدُ أن نواجه به علماء الاتصال الغربيين الذين أغفلوا دور المسلمين في

✸ المقصود بالمحمول على الصدق ما يقبله الإنسان لصدوره عمن عُرف بالصدق.

[١] محمد أبو زهرة، **الخطابة أصولها، تاريخها في أزهر عصورها** (القاهرة: دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٣٤م) ص ١٨.

هذا المضمار. ولهذا السبب أيضاً تنـــزعُ هذه الورقة البحثية لإبراز الأبعاد الاتصالية للخطابة مَقروءةً مع طبيعة ممارستها الفنية التي أفرزتها التجربة الإسلامية بوصفها إحدى الوسائل الفاعلة ذات الاستدامة والتأثير في المجال المعرفي الذي نَبَعَ من حاجة الإنسان. وهذا العُنصر نحسبُهُ جديراً بالإشارة إليه أكثر من بقية العناصر التي أولاها الكُتابُ المسلمونَ أهميةً أكبر، على الرغم من أننا نُثَمنُ الدور الذي أدَّوه والذي لا يُمكنُ إنكارهُ أو التقليلُ منه على الإطلاق. إلا أنَّ الضرورةَ تقتضي تسليطَ المزيدِ من الضوء على خصوصية هذا النمط الاتصالي الإسلامي الذي أغفله العُلماء.

إنَّ الخطابة علمٌ من العلوم الإنسانية له أصولُهُ وأبعادُهُ وقوانينُهُ التي تضبطُ مساره. وقد أشار عددٌ من العلماء إلى وجود علاقةٍ وثيقة بينها وبين علم المنطق ومنهم العلامة ابنُ سينا الذي أشرنا إلى رؤيته في السطور السابقة، حيث أكَّدَ ذلك في كتابه الشفاء الذي أشار بالعبارة الصريحة إلى أنَّ الخطابة قسمٌ من أقسام علم المنطق. كما أنَّ لها علاقةً أكثرَ وثوقاً بعلم النفس، وعلاقةً شبيهةً بعلم الاجتماع. وقد عدَّ كثيرٌ من الفلاسفة الخطابة جُزءاً متمماً لعلم المنطق، خصوصاً بعدَ أن تَمَّتْ ترجمةُ كتاب الخطابة للفيلسوف اليوناني أرسطو طاليس إلى اللغة العربية في بدايات القرن الثالث الهجري. وبعد ذلك جاءت رؤية الشيخ محمد أبو زهرة للخطابة والتي كانت على اتساقٍ تام مع ما ذهب إليه الفلاسفة - وعلى رأسهم ابن سينا - الذين نظروا للمنطق نظرةً شاملة استمرت لعقودٍ طويلة حتى ظهرَ جيلُ الفلاسفة المتأخرين الذين قصروا نظرتهم للخطابة على صور القياس وأشكاله وأدواته.

ولعل التأثر الواضح الذي أبداهُ الشيخ أبو زهرة بهذا الفكر قد نبع من أنَّ المنطق خادمٌ لعلم الخطابة بحكمِ أنَّ كثيراً من قوانين الخطابة قد استندت على المنطق وَحْدَهُ في صياغة مبادئها وأهدافها. ولذلك لم يجد الشيخ أبو زهرة حرجاً من أن يقول: إنَّ المنطق ألزم العلوم للخطابة، وبينهما من وشائج القربى، وتداخل المسائل، وتقارب

المناهج، وتداني المآخذ، ما سَهَّلَ على الأقدمين عدَّهُما علماً واحداً وما يجعلنا نحن المتأخرين نعدهما أخوين مُتحدي النسب.٢

ومن خلال هذا السياق فإنَّ الخطابة قد تجاوزت كونها فناً لتُصبح علماً لهُ أُسُسُهُ، ومقوماتُهُ، ونظامُهُ الدلالي، وشروطُهُ الخاصة التي تُميزُهُ عن بقية العلوم. ولعَلَّ المفارقة تتضح عندما نلاحظ أنَّ هذه الاعتبارات قد تضعضعت إلى حد التلاشي في بدايات العصر الحديث عندما قَلَّ التعامل مع الخطابة في أخريات القرن التاسع عشر، حيثُ تضاءَلَ دورُها الفكري، وتنكر الكثيرون لها بوصفها أسلوباً تعبيريَّاً، حتى أنَّ العديدَ من المؤسسات التعليمية في البلاد الإسلامية عندما أرادت تدريسها لناشئة الأجيال في المراحل التعليمية الصُغرى لم تجد لها إطاراً مناسباً فوضعتها ضمن نصوص الأدب العربي من خلال دروس التعبير، وهي قطعاً ليست كذلك على الرغم من أنَّ محتوياتها قد أفادت في هذا المضمار. وأشارت بعضُ المناهج التي وضعتها وزاراتُ التعليم في سوريا وليبيا والجزائر للخطابة من خلال مقررات علم المنطق، وهي أيضاً اعتباراتٌ قاصرة بهذا الشكل الذي وُضعت به.

ولذلك فإننا نقترح من خلال هذه الورقة أن تُدرج الخطابة بوصفها فرعاً قائماً بذاته ليُدرس ضمنَ عُلوم الاتصال. وربما كانت هذه الرؤية لا تتسق مع نظرةِ الذين عدّوها جزءاً من علم النفس بحكم أنَّهم أرادوها جزءاً من هذا العلم. ووجهُ اعتراضنا على هذا الأمر هو أنَّ هؤلاء النفسانيين قد تناولوا من الخطابة عُنصراً واحداً فقط هو الدافعية التي أمْلَتْ رسمَ مُحتواها الخطابي، ثم ركّزوا على الأثر الذي أحدثته هذه الدافعية من خلال المحتوي في السامعين.

وعلى الرغم من أهمية الدافعية والأثر إلا أنهما لا يضعان أرضيةً صُلبةً لتوصيف علمِ الخطابة، خصوصاً وأنَّ هذا المنهج الاستقرائي لتحديد العلاقة بين الأثر والمؤثر ظلَّ حبيساً لسنوات طويلة في الإطار الذي وضعه بافلوف - Baflof، وثرونڈايك - Throndaik في إقرارهما لنتائج التجارب التي اقتصرت على الحيوانات الدُنيا. وهي نتائج قد تخدمُ أغراضاً في غير هذا الإطار لأنها بحكم طبيعتها قد تجاوزت مُعطياتٍ كثيرةً في غاية الأهمية ومنها تقلباتُ النفس البشرية التي تتلقى مضمون الرسالة، وملابساتُ

---

٢ المرجع السابق، ص ٨.

الحياة العامة التي تؤثرُ في تناول الموضوع، وصورة المجتمع الفكري الذي تتبلور من خلاله نظرة الخطيب للأمور المثارة من خلال النص. ولذلك فالذي نراهُ هو أنَّ حظ علم النفس ضئيلٌ في تصوير الدور التاريخي والعلمي للخطابة، ثم الشكل التعبيري الذي يُقدِّمُ فيه المحتوى. وبالرغم من هذا فلا مَنَاص من استصحاب هذا الجانب النفسي في تفسير الظواهر المصاحبة لرد الفعل الخطابي على السامعين عند التقويم العام لدور الخطابة الاتصالي.

الخطابة بين التعريف والتأطير

من خلال هذه الرؤى المتباينة لعلماء المنطق والاجتماع والنفس وملاحظات السلف لتحديد الإطار العلمي للخطابة وضع لها المنطقيون والحكماء تعريفاً يقول: إنَّ الخطابة هي القياسُ المؤلف من المظنونات أو المقبولات لترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم أو معادهم[٣]. والمظنونات هي الأمور التي يحكم العقل فيها حكماً راجحاً اتباعاً لغلبة الظن. والمقبولات هي الآراء التي يكون مصدر التصديق فيها وقوعُها ممن لا شبهة في صدقه مع كونها قابلةً للإنكار. وأطلق بعضُ اللغوين لفظ الخطابة على الخُطبة وهي الكلام المنثور المسجوع أو المرسل الذي يقصد به التأثير على السامعين وإقناعهم بمدلوله. وهي بذلك قد أُخذت من مصدرها اللغوي (خطبَ يخطبُ) أي صارَ خطيباً. وهي بذلك قد أصبحت إحدى مُقومات المتحدث الذي يتعاملُ من خلالها مع فنون اللغة بغرض التأثير على السامعين وإقناعهم.

والخطابة بهذا المفهوم المبسط تُعدُّ فناً من فنون الكلامِ المنثور والبليغ الذي يُعنى بمخاطبة جمهور المتلقين بأسلوبٍ إلقائي يشتملُ على الاستمالة والإقناع لحشد المتلقين حول مبدأ من المبادئ أو توجيههم نحو هدف معين. وهذا هو التعريف الذي تبناهُ كثيرٌ من الكُتاب ومنهم حَنَّا الفاخوري أحد المهتمين بعلم الخطابة[٤]. وواضحٌ من هذا السياق أنه اشتملَ على عناصر معينة جاءت في مقدمتها ضرورة أن يكون الحديث مخاطبةً لجمهور من الناس، ثم الأسلوب الإلقائي، ثم عُنصر المهارة الذي يظهرُ من خلال تطويعِ المَلَكاتِ الفنية لدى الخطيب، والتي تبرُزُ من خلال جهارة الصوت،

---

[٣] المرجع السابق، صفحة ٨.

[٤] انظر حنَّا الفاخوري، **الموجز في الأدب العربي وتاريخه والأدب العربي القديم** (بيروت: دار الجيل، ط ١، ١٩٨٥م).

وتكييفه بتطويعِ النَبَرات، وتجسيمِ المعاني التي تتضمنها الرسالة الخطابية.

ويأتي بعد ذلك عُنصر الإقناع الذي يقتضي اشتمال الخطاب على أدلة وبراهين تدعَمُ صحة الفكرة المراد توصيلُها إلى المتلقي. وهذا لا يتأتى قطعاً بغير توافر عنصر الاستمالة الذي يُعنى بتوجيه أحاسيسِ السامعين وعواطفهم الوجدانية التي تؤثرُ في استجابتهم للرأي المُثار. وذلك لأنَّ المتلقي قد يقتنع بفكرةٍ ما لمجرد الأسلوب الذي نوقشت به هذه الفكرة وشكلية التوظيف العلمي لأدوات العرض. وهذا بالطبع أحدُ عناصر الرسالة الاتصالية لأنه يحقق الغرض المطلوب منها سلباً أو إيجاباً. ولذلك إذا كان الخطيبُ فاتراً في إلقائه أو ضعيف التأثير في جُمهور المتلقين تضيع جميعُ أدلته التي يستندُ عليها هباءً ولا تؤدي الغرضَ المطلوبَ منها.

إذاً فهدفُ الخطابة الأدنى هو التأثير في نفوس السامعين بإثارة أحاسيسهم ووجدانهم نحو الأمر المُراد الإذعان له، في حين أنَّ هدفها الأعلى هو توصيل معلوماتٍ بعينها للمتلقي في قالبٍ فني مؤثر بغرض خلق تغييرٍ في السلوك يتسقُ مع محتوى الرسالة. وهذا هو العنصرُ الذي يجعل من الخطابة أداةً اتصاليةً كاملة السمات. حيثُ إنها تتسق بهذا المدلول مع الاتجاه الفكري الثالث لعلماء الاتصال الذين نظروا للاتصال باعتباره عملية نفسية يتم فيها تحديد معاني الرموز عبر عمليات الاكتساب التي تعتمد على المعطيات الذاتية للفرد.[٥]

ويؤدي المعنى المحدد الذي يكسبه الفرد للأشياء من حوله دوراً أساسياً في فهمه للعالم من حوله وتفاعله معه، وفي علاقته وتعامله مع الأفراد الآخرين ثم الأخذ بما تضمنته الرسالة مأخذ الجد والإذعان له. ولكن بالطبع فإنَّ هدف الإقناع الخطابي ليس هو الإلزام والقسر، بل هو حمل المخاطب على الإذعان والتسليم بإثارة نزعة القبول والرضا من خلال توظيف الإقناع الذي يمر عبر بوابة العاطفة الفطرية لدى الإنسان، والتي تجعله يقبل ما يرتاحُ إليه ويلفظ كل ما تنفر منه نفسه التواقةُ للجودة. وبناءً عليه فإنَّ هذا القبول قد يتحولُ إلى تعصبٍ للفكرة التي يدعو إليها الخطيب، وهذا هو غاية الإذعان الذي نجحت فيه الخطابة الإسلامية في معظم عصورها الباكرة والتي جعلت

---

[٥] محمود محمد قلندر، **الاتصال الجماهيري، النظريات والوسائل والنماذج** (كوالالمبور: دار يونيفيزيون للطباعة والنشر، ط ١ ، ١٩٩٩م) ص ٩.

منها أداةً تستحقُ الدراسة.

إذاً فالخطابةُ بهذا المفهوم تُعدُّ أداةً للاتصال، ثُمَّ تتخطى ذلك لتكونَ إحدى قنوات الدعوة في المفهومِ العقدي الإسلامي. وهي بهذا المزج استطاعت أن تخلق لذاتها كينونةً أبقت على جذوتها مستعرةً طوال القرون بوصفها إحدى وسائل الاتصال، والتوجيه، والمعرفة، ونشر المعلومات، والرأي، وبث الدعاية الفكرية والسياسية. ونتجَ عن ذلك عُنصرُ المواكبة الذي صاحبها كإحدى ضرورات الحياةِ الاجتماعيةِ في المجتمعات الإسلامية الأولى.

اليونان وصياغة الأسس الخطابية

لم يكن المسلمون هم أول من وضعَ أسسَ الخطابةِ وقواعدَها، وإنما كان السفسطائيون اليونانيون هم أول من استنبط تلك القواعد في القرن الرابع قبل الميلاد. حيثُ قاموا بتعليم الشبان في أثينا طرق التغلب على خصومهم في ميادين المنافسة التعبيرية، وعلموهم فنون الجدل، وكيفية مقارعة الحجة بالحُجة، وكيف يموهون الحقائق على مناوئيهم بعبارات دامغة لا تقبل الرد. ولذلك أصبح أولئك التلاميذُ ذوي باعٍ وحنكة في الإلقاء وعرضً المهارات الخطابية. وكان طبيعياً أن يلجأوا إلى استنباط قواعد وقوانين لهذا الفن الذي أصبح واحداً من أحب الفنون إلى نفوس الأجيال المتعطشة للمعرفة والنهل من معين الحكمة التي ازدهرت في ذلك العصر.

وأشارَ المؤرخونَ إلى أنَّ أول من وضع قواعد الخطابة من السفسطائيين ثلاثةُ رجال أولهم: برويكوس القوسي المتوفى سنة ٤٣٠ ق.م والذي بالغ في فرض الأجورِ علىً التلاميذ الذين يأتون إليه لتعليمهم فن الخطابة. وعلى الرغم من أنه جمع أموالاً وفيرةً من هذه الدروس إلا أنه أنفقها جميعاً في شهواته ومُجونه الذي أفضى به إلى القول إنَّ الآلهة من مخترعات العقول ولا وجود لها في الواقع. وقد أدى به ذلك الادعاءُ في نهاية المطاف إلى الهلاك حيثُ أُعْدِمَ بإجباره على تناول السُمّ.[٦]

وكان السفسطائي الثاني ممن وضعوا لبنات علم الخطابة هو بروتاغوراس ٤٨٥-٤١١ ق.م الذي بَالَغَ مثل رفيقه الأول في وضع أجورٍ باهظة على دروس الخطابة التي ألقاها على تلاميذه. وكان كثير الشك في الناحية العقدية مما جعله يصرحُ مراراً بأنه لا يستطيعُ أن يجزم بوجود آلهةٍ في هذا الكون.

---

٦ محمد أبو زهرة، مرجع سابق، صفحة ٩.

والثالثُ هو جورجياس ٤٨٥-٣٨٠ ق.م الذي فتح مدرسةً لتعليم الخطابة وجمع منها أيضاً مالاً وفيراً ساعده في الثراء ونيلِ شُهرةٍ واسعة طبقت أرجاء المدن الإغريقية. وكان من رأيه في حقيقة الوجود أنه لا يوجدُ شيءٌ، وإن وُجدَ شيءٌ فليسَ بالإمكان معرفته، وإذا أمكنت معرفته لا يمكن للبشرِ تعريفُه. بعد ذلك تعودَ الخطباءُ على أخذَ المال مقابل خطابتهم، فأخذ (إشيل) مالاً وفيراً من ملك (مقدونيا) مقابل قيامه بأعمال الخطابة، وقبض ديموستين دنانير كثيرةً من ملك الفرس للغرض نفسه[٧]. وبالتالي فقد أثرى هؤلاء الخطباء اليونانيون ثراءاً كبيراً من الخطابة بحكم دورهم التعليمي إلى جانب الدور الدعائي الذي قاموا به لخدمة الأحزاب السياسية والحكومات.

ونخلصُ مما سبق إلى عدة نقاط أهمُها أنَّ الخطابةَ قد بدأت دعائيةً، وإعلاميةً، وتثقيفيةً، وترفيهية. وهذه هي العناصرَ الرئيسة التي أصبحت فيما بعد من أهداف وسائل الاتصال. كما نخلص من هذا السرد إلى نقطة أخرى لا تقل أهميةً وهي أنَّ قواعد الخطابة قد وُضعت في ظروف قلَّ فيها وجودُ وسائلَ إعلامية أخرى تساعدُ على نقل المعلومات. مما جعل الناسَ يهتمون بفن الكلام والمجاهرة به أمام الجمهور. وقد قادَ ذلك عدداً من التلاميذ لدفع أموالٍ باهظة للأساتذة الذين يُدرِّسونَ هذا الفن الجديد.

والنقطةُ الثالثة هي أنَّ علم الخطابة قد برز على أيدي رجالٍ أقل ما يمكن أن يوصفوا به هو الزندقة والخروج على منوال الفطرة وناموس الطبيعة بحكم أنَّ منهم من تمادى في مجونه وانخراطه في الشهوات، كما أنهم جميعاً قد أنكروا وحدانيةَ الإله الذي رمزوا له بلفظ الجمع (آلهة) وليس لفظ المفرد (إله) الذي يقتضيه مقام التوحيد الذي جاءت به الأديانُ السماويةُ على إطلاقها.

ولعل فكرة الشرك المسيطرة على عقول الفلاسفة اليونانيين آنذاك والتي جعلتهم يتخذون إلهاً للشمس وإلهاً للجمال وإلهاً للخصب وغيرها، والتي لم ينجُ منها إلا سُقراط وأرسطو وإفلاطون[٨] قد كانت السبب الأساس في نفور هؤلاء السفسطائيين

---

[٧] المرجع السابق، صفحة ٩.

[٨] تشيرُ الدلائل إلى أن سقراط قد كان موحداً ومؤمناً بالله ورافضاً لمبدأ اتخاذ الآلهة الإغريقية مصدراً للحياة، وقد أشار بعضُ العلماء المسلمين ومنهم الفارابي إلى أنَّ إفلاطون قد كان موحداً ولذلك ظهر التوحيد في أسس مدينته الفاضلة. كما أنَّ كل هؤلاء الفلاسفة في نظر المسعودي وبينهم سقراط وأرسطو وإفلاطون قد كانوا موحدين لله على عكس أقوامهم من اليونانيين المشركين.

عن مجرد فكرة الخالق التي أنكروها. ولهذه الأسباب جاءت الخطابة اليونانيةُ مُرتكزةً على أسس الغلبة الذاتية القائمة على القوة. وتدعمها مهارة الألفاظ التي تدرب عليها الخطباءُ بمحض إرادتهم لدعم مواقفهم السياسية والفكرية. ولكن لم تكن الحقيقة هي مناط الرسالة الخطابية في ذلك العصر، بدليل أن واضعي لبناتها الأساسية قد هلكوا بحيدتهم عن الحقيقة ومجافاتهم للأخلاق.

فهل كان هذا هو الميراثُ الخطابي الذي ورثته الأممُ اللاحقة؟ في حقيقة الأمر اختلفت رؤية المجتمع الذي عاش في الجزيرة العربية عن رؤية الإغريق للخطابة. ولكنْ نظراً لتباين هذا الاختلاف عبر العصور فإنه يتوجَّب علينا أن نُشير إلى بعضِ زواياهُ قبلَ أن نصل إلى خلاصةِ ما نصبو إليه من تأطير الدور الاتصالي للخطابة وفقاً للمنظور الإسلامي.

ومن خلال هذا السياق يتضح أنَّ اليونانيين هم أول من عدَّ الخطابةَ علماً له أسس وقواعد بحكم أنَّ الأثينين في ذلك العصر الذي عاش فيه بيركليس قد كانوا أهل فصاحة وشغف بالحديث تأثراً بسلوكه بينهم. وقد تطورت لديهم نزعةُ التعبير عَمَّا في نفوسهم حتى ملَكوا ناصيتَهُ، وأصبح لديهم تأثيرهم القوي على جمهور المستمعين خصوصاً عندما أتقنوا فنون البلاغةِ وطوروا أساليب الفصاحة. وبالتالي فقد كانوا أول مَنْ كتب في علم الخطابة.

تطورَ الدورُ الخطابي في الدولة الإغريقية بشكلٍ سريع وفعال بحكم سطوة المعلومة وأهمية الفكر وتنوع الأخبار. كما ساد الاعتقادُ بين الإغريق أنَّ الخطباء هم المصدر الوحيد للأخبار والتحليلات السياسية ونشر الثقافة بين الناس، خصوصاً وأن كثيراً من الخطباء قد كانوا هم الفلاسفة والعلماء أنفسهم، وبناءً عليه فإنَّ مَنْ يملك الأخبار والمعلومات يملك السلطة.

وبالفعل أصبح الخطباءُ هم ملاك السلطة في الدولة، حيث التزمت الحكومة بكل النصائح التي أثاروها وعملت بإرشاداتهم ومواعظهم التي اعتبرتها إحدى المصادر الأساسية للهيبة والمَنعة والقوة. وطغى تدريجياً نفوذ الخطباء حتى عهدت الدولة إلى بعضهم بشئون المملكة. وعلى رأس هؤلاء الخطيب الشهير كليون الذي عُينَ قائداً للجيش. ثم ديموستين الذي عهدت إليه الدولة برئاسة فريق الحرب المقاتل في المعركة

التي أُطلقَ عليها اسم معركة فيليب.

الخطابة العربية قبل الإسلام

انتقلت الخطابة بكل سطوتها ومكانتها تلك إلى الأمة العربية في فترة ما قبل الإسلام التي اصطلح العلماءُ على تسميتها بالجاهلية. وكان لها موقعٌ متميزٌ وشأن عظيم في تلك الفترة التي ضاعت مُعظمُ خُطبها بحكم عدمِ تدوينها، إلا أنَّ مِنْ سماتها القليلة التي وصلت من خلال المراجع نُزوعَها للوعظ والحِكَمِ القائمة على تراث القبيلة. وقد تفرد خطباءُ الجاهلية شأنهم شأن خطباء اليونان بمراكز مرموقة في الدولة، حيثُ تعادلت مكانتهم مع مكانة الشعراء الذين كانوا الناطقين الرسميين باسم القبائل. حتى أنَّ أبا عَمرو بن العلاء قد تعجب من وضع الخطيب في ذلك العصر حينما قال: (إن الخطيب في الجاهلية أصبحَ فوق الشاعر).[٩]

وربما كانت هذه من صيغ المبالغة التي أراد بها أبو عَمرو أن يُوضح الدور الكبير المُناط بالخطيب إلا أنه حتماً لم يكن فوق الشاعر بحكم القدسية التي وضعها الجاهليون للشعراء بوصفهم قادةً للفكرِ، وحاملين للواء القبيلة، بل وبوصفهم قادةً سياسيين في كثيرٍ من الأحيان. وقد ازدهرت الخطابة في هذا العصر لوجود دواعٍ كثيرة منها أنَّ الأمة الجاهليةَ كانت أمةً حربية، وقد توفرت لها وقائعُ وصداماتٌ لا تُنسى ومعاركُ بين الأشقاء دعت إليها طبيعةُ الحياة البدوية. وكانت تلك الظروف مدعاةً لازدهارِ الخطابة وجعلها الأسلوب الأمثلَ لإظهار القوة والمنعة والسلطان.

وقد غذى تلكَ النزعاتِ كونهم على اتصالٍ بالأمم المجاورة كالفرس والروم. حيثُ كان ذلك أيضاً نذيراً للحروب والأيامِ التي علاً فيها صوتُ الخطابة. وفضلاً عن تلك النهضة السياسية كان الجاهليونَ على جانبٍ كبيرٍ من الحضارة اكتسبوه من اليمن التي اتصلوا بها ثم اشتبكوا معها أيامَ الحروب[١٠]. واتفق مؤرخو الأدب على قوة الخطابة

---

[٩] انظر صلاح الصفدي، **معجم الأدباء والوافي بالوفيات**، تحقيق مرجليوث (دمشق: المطبعة الهاشمية، ط ١، ١٩٥٣ م) ج٦/٣٣٦.

[١٠] عبد الله عبد الجبار، ومحمد عبد المنعم خفاجي، **قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي** (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ط ١، ١٩٨٦م) ص ٤٤.

الجاهلية وازدهارها بحكم تملك القومِ ناصيةَ البيانِ وتمكنهم من البلاغة وفصاحة الألسن التي اعتمدت على سليقة اللغة. كما كان الخوفُ من غدر القبائل والمنازعات سبباً آخر للدفاع عن النفس والعرضِ والمال والانتقامِ من الأعداء. ثمَّ إنَّ الناسَ قد تمتعوا بقدرٍ كبيرٍ من الحرية في إبداء الرأي دون أي قيودٍ. ولذلك استُخدمت الخطابةُ بوصفها أداةً للمنافرة بين القبائل، وفي الوقت نفسه أداةً لتحية زعمائها، حيثُ وقفَ أحدُ البدو بين يدي أمير الغساسنة والمناذرة وحيَّاه بخطبةٍ عصماء أصبحت مثار حديثِ النقاد إلى وقتٍ قريب.

وقد اعتمدت الخطابة في الجاهلية على أسلوب السجع بقصد تحبير الكلام وتنسيقه ليكونَ أكثر تأثيراً في السامعين[١١]. وعلى الرغم من أنَّ ذلك السجع لم يكن من الفنون السهلة أو الميسورة إلا أن الخُطبَ الجاهلية قد تميزت بقلة الأخطاء والإيجاز في محتوياتها. وكانت في معظمها تُلقى ارتجالاً دون إعداد.

وكانت أبرز أغراض الخطابة في تلك المرحلة هي التفاخر بالجاه، وقوة الساعد، وكثرة العدد. وعندما نهضت الخطابة ظفرت بمنزلة عظمى بحكم تلك الظروف وكثرة الأحداث، ووفرة المعارك، ونمو القبائل. ولكن ظلَّ المأثور منها أقلَّ بكثيرٍ من الشعر الذي رُويَ عن تلك الفترة. وذلك لصعوبة حفظ النثر بحكم عدمِ التزامه بأوزانٍ أو قوافٍ كما في الشعر.

وقد أدى ذلك إلى ضياعٍ كثير من الخطب التي قيلت في ذلك العصر الذي اختلف الرُواةُ في نسبة بعضِ نصوصه إليه بحكم تقادم العهد وطولِ المدة[١٢]، ومن ذلك الخلاف المحتدم التي ثار بين الدكتور طه حسين ومعارضيه، والذي ظهر من خلاله كثيرٌ من التشكيك في النصوص الجاهلية ومنها الخطابة، ويمكن بهذا الصدد مراجعة مؤلفات الدكتور طه حسين وعلى رأسها كتابه الأدب الجاهلي.

البعد الاتصالي للخطابة الإسلامية

تعرضت حياةُ الأعرابِ بعد ظهور الإسلام إلى انقلابٍ كبيرٍ وشامل في كل مناحي الحياة، حيثُ أصبحَ التطورَ سمةً للعصر الجديد بحكم دخولِ مفاهيم جديدة ومُثل عليا

---

١١ عبد الله عبد الجبار، ومحمد عبد المنعم خفاجي، مصدر سابق، صفحة ٦٣.

١٢ المرجع السابق، صفحة ٧٤.

ومبادئ مختلفة جاء بها الإسلامُ على النقيض من المبادئ التي فرضتها البيئةُ الجاهلية والحياة القبلية. فعندما جاء الإسلام أصبح العربُ دُعاةَ توحيد يجمع شمل الكثيرين من أفرادِ القبائل التي ظلت على خصامٍ ونفورٍ مفتعل على مدى الأعوام. وظهرَ نظامٌ سياسيٌّ جديد دعا للتعايش السلمي والأخوي بين الأفراد، وتبدلت أحوالُ الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية للناس.

وكانت كلُّ هذه الظروف والمعطيات الجديدة إشارةً للعطاء الإنساني بأن يزدهر، وللمبدعين أن يُطوروا أساليبهم في عرضِ ما لديهم. وعلى رأس هذا العطاء كانت الخطابة التي تبدلت قلباً وقالباً. حيثُ أصبحت غايةُ الخطيب أن يؤثر في النفوسِ والأرواح ليمتلك نواصي القلوبِ العامرة بالحب والإيمان والخالية من البغض وحب الاقتتال. ولذلك لم يكن كافياً للخطيب أن يصل إلى ذلك الهدف بإيجاد أدلة لفظية فقط، وإنما أصبحَ لزاماً عليه أن يتحمل بآداب نفسية وقِيمٍ أخلاقية وروحية لم تكن مألوفةً من قبل، ثم يتصدى بعد ذلك للحديث أمام الناس.

وكان هذا التغيير السلوكي والعقدي عُنصراً مهماً جذبَ القلوب إلى الخطابة بحكم التطور الذي طرأ على مفاهيم القوم. ولذلك كان من أبرز سماتها في صدر الإسلام وجودُ الرأي، والحُجة القائمة على أساسِ ما أثبته الدين، والتمييز بين الحق والباطل، ومحاولة الاهتداء إلى الحقيقة بالأدلة العلمية. ولذلك اعتمدت خطابة هذه المرحلة على صدق اللهجة، وصحة القول. وقد ظهرَ ذلك حتى في ملامح وجوه الخطباء[١٣]. حيثُ وصفه الكاتبُ زكريا عبد الرحمن صيام باستفاضة حين أشار إلى أنَّ طهارة القلوب والإخلاص في العمل والتقرب إلى الناس بالتحلي بالوقار والعفة والوفاء والأمانة وعزة النفس كانت سلاح الخطابة في صدر الإسلام.

وكان الدافعُ لذلك أنْ يظهر الخطيبُ بوصفه إنساناً كاملاً خالياً من العيوب والأغراض حتى يؤثر في الجموعِ المتحلقة حوله. كما كانت رباطةُ الجأش قد حفظت كرامة الخطباءِ، وأبقت على عقولهم متفتحةً أثناء أدائهم لدورهم على المنابر. وقد استفادوا من بديهتم الحاضرة وسرعة خواطرهم، فكان ذلك مدعاةً لطلاقةِ ألسنتهم

---

١٣ زكريا عبد الرحمن صيام، مرجع سابق، صفحة ١٠١.

التي أدت إلى جذب السامعين إليهم. ونهضت الخطابة في العصر الإسلامي نهضةً واضحة ظهرت في ارتقائها بوصفها إحدى الفنون الشعبية، مما أدى إلى اتساع ميادينها التي أسهم فيها تحول الحياة الأدبية وضعف الشعر وانصراف الناس عنه١٤. ولم يكن ذلك بسبب نضوب المعين الشعري، وإنما كان بسبب اهتمام المسلمين بالقرآن الذي لم يترك لهم وقتاً لكتابة الشعر أو الاهتمام به.

ثم إنَّ القرآن الكريم قد نفى عن النبي ﷺ صفة الشاعر كما نفى عنه صفة السحر. ولذلك شعرَ الكثيرون بأنَّ تعاطي الشعر قد أصبح مَذمةً وليسَ محمدة وفقاً للمدلول اللفظي للآية الكريمة: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِيْ لَهُ﴾١٥. ثم قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُون * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيْمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾١٦. وبغض النظر عن الآية التالية لهذه الآية، والتي استثنت الذين آمنوا وعملوا الصالحات١٧ بدا كثيرٌ من القومِ نافرين عن هذه الصنعة التي توارثوها منذُ سالف الأزمان. ونفر بعضهم حتى من الاستماع للشعر مخافةَ الوقوعِ في المكروه.

وبالرغم من أنَّ النبي ﷺ قد أوضح بجلاء مدلول هذه الآية والفرق بين شعرٍ وشعر، وأكدَّ أنَّ محور الرفض هو المضمون الشعري وليس المبدأ الشعري، إلا أنَّ ذلك ظلَّ هاجساً في نفوس الكثيرين بوصفه نوعاً من الورع واتقاء الشبهات. وقد أقرَّ النبي ﷺ العديد من قصائد الشعراء التي أُلقيت أمامه، وحفَّزَ بعضهم مثل كعب بن زهير الذي خلع عليه بُردَتَه. ثم عملَ على استنفار المسلمين للقتال بقصائد حسان بن ثابت والخنساء عندما حثها بقوله: إيهِ يا خُناس، إلا أنَّ الشعر تراجعَ على الرغم من ذلك عن دوره الذي أدَّاه في الجاهلية.

---

١٤ المرجع السابق، صفحة ١٠٣.

١٥ سورة يس، الآية رقم ٦٩: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِيْنٌ﴾.

١٦ سورة الشعراء، الآية رقم ٢٢٦.

١٧ تقول الآية الكريمة: ﴿إِلاَّ الَذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيْرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَذِيْنَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، سورة الشعراء، الآية ٢٢٧.

وكان أسلوبُ القرآن الخطابي دافعاً تلقائياً للمسلمين للحرص على الخطابة التي بدت وكأنها مُساعدة على تبيين مقاصده ووضع أهدافِه موضعَ التنفيذ. كما أنَّ معظم أصحاب رسول الله ﷺ وقُواده ووُلاة الأمصار والدعَاة والزعماء قد كانوا خُطباء فصحاء. ثم إنَّ الشعرَ الذي نجحَ نجاحاً باهراً في استنهاضِ الهمم لموالاة الدين الجديد فَشِلَ بعدَ ذلك في أنْ يُؤدي وظيفة تعليم الناسِ قواعدَ الدين الجديد، وبالتالي فشلَ في مواصلة الدعوة لنشر الدين بالشكلِ الذي فعلته الخطابة. وكان ذلك مدعاةً لإفساح المجال أمامَ الخطابة لتُعضِّدَ قضيةَ الدعوة بأسلوبها الخاص، فنجحت نجاحاً باهراً مما جعلَ الشعراء أنفُسهم يفخرون بها ويتغنون بأمجادها.

ولذلك عُدَّت الخطابة في العصر الإسلامي أكبر مقاماً من الشعر، حيث اعتمدَ عليها المسلمون في المواقف الجادة. واستطاع الخطباء من خلالها أن يشرحوا المبادئ التي دعا إليها الدين وبنوا عليها أدلتهم اللفظية والمعنوية. وبما أنَّ ميادين الخطابة قد تشعبت في هذا العهد فقد شارك فيها المستمعون أيضاً بالحوار في مختلف المواقف، وعرضوا استفساراتهم على الأئمة والوعاظ حول ما استعصى عليهم فهمُه من الأمور الغامضة. ولهذا السبب فضلها الكثيرون على الشعر الذي انتكسَ في هذه المرحلة حتى أصبحَ وسيلةً للارتزاق في بعض الأحيان. وبالمقابل خدمت الخطابةُ عدداً من المحاور مثل الحث على القتال، والأخذ بالثأر، والدعوة إلى الصلح بين المتخاصمين، والمفاخرة بمكارم الأخلاق، والتواصل بين الأمم، ونشر العلم بين الناس.[١٨]

وكانت أهدافُ الخطابة في هذه المرحلة المبكرة للإسلام قد تمثلت في الدعوة للدين، وتوحيد الله، وترك الأصنام، والحث على الجهاد، ونشر التعاليم الجديدة، وشرح منهاج الحكم، وحل المشكلات السياسية، وتأييد البيعة. ثم عندما ظهرت الطوائفُ والأحزابُ الدينية استخدمَها الساسةُ المسلمون لمناصرةِ حزب على حزب ودعوةِ الناسِ للانضمامِ إلى هذا الفريق أو ذاك. وظهر في تلك المرحلة عددٌ من الخطباء المفوهين ومنهم: الإمام علي بن أبي طالب، وزياد بن أبي سفيان، و قُتيبة بن مسلم، وعمرو بن سعيد، وغيرهم.[١٩]

---

[١٨] المرجع السابق، صفحة ٦٨.

[١٩] المرجع السابق، صفحة ٧٢.

وكان لتأثر أسلوب الخطابة في هذا العصر بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أثرٌ في احترامِ الناسِ للخطابة ووضعها موضعاً أسمى بين أساليبِ التعبير. وبالمقابل أدى ذلك إلى قوة المفردات وسرعة وصولها للنفوس وامتلاكها لوجدان السامعين الذين امتثلوا لمواعظها الزاجرة ونصحها الصادق.

كما تميزت الخطابة الإسلاميةُ منذُ بدايتها بنبل المقاصد، وسمو الأغراض، وتنَزّهها عن النزعات الشخصية. فقد قامت على الدعوة إلى الخير واتباع المبادئ الراقية. ودعت إلى السلم، والحفاظ على روح التآخي بين الناس، والحث على اتباع الفضائل بأشكالها المتعددة[٢٠]. ولا شكَّ أنَّ ظهور الإسلام في حد ذاته كان أمراً عظيماً في حياة العرب، ولذلك لم يقف أثره على ترك عبادة الأوثان والإخلاص في العبادة، وإنما انعكس على كل مجالات الحياة بما فيها من العادات والتقاليد والقناعات القديمة.

ولذلك كان على الخطابة أيضاً أن تستصحب هذه المعطيات وتترجمها إلى واقعٍ ملموس يُعايشه الناسُ على الطبيعة، ولذلك قامت بعبء تبليغ الرسالة بكل خصوصيتها وتفردها، وشرحت مبادئ الإسلام بأسلوبٍ تلقفه الناسُ بشكلٍ ميسور. وكان ذلك بدوره سبباً آخر في النهضة وظهور عدد من الخطباء الذين أثروا الحياةَ العامة. وأصبحت الخطابة وسيلة من وسائل التعبير عن الرأي الحرّ في عصر الرسول ﷺ واستمرت بالشكل نفسه في عهد أبي بكرٍ الصديق، وكذلك في عهد عمر بن الخطاب الذي على الرغم من أنه كان امتداداً لما سبقه إلا أنه لم يوجد فيه ما يزيدُ الخطابة نشاطاً.

أما في خلافة عثمان بن عفان فقد بدأت الفتنةُ الكبرى التي أدَّت إلى انقسام المسلمين بعد بيعة التحكيم[٢١] مما أعاد للخطابة رونقها وصدارتها. وقد اتخذت الخطابة في العصر الإسلامي الأول شكلاً فنياً جديداً يبدأ بحمد الله والثناء عليه، حتى أصبح التحميد سُنةً من سُننها. وبدأت تُحاكي أسلوب القرآن في الإقناع والاقتباس من الآياتِ الكريمة بغرضِ الاستشهاد بها في المواقف المختلفة. كما بدأ الصحابةُ يحاكون

---

٢٠ السيد أحمد الهاشمي، **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب** (بيروت، ط ١، ١٩٨٩م) ص ٥٨.

٢١ محمد بن عبد الوهاب، **مختصر سيرة** ﷺ (بيروت: دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٥٦م) صفحات ٤١٥-٤٢٠.

أسلوبَ النبي ﷺ في الحديث، وهو أسلوبٌ رصينٌ ومتفرد اعتنى بالمعاني واعتمدَ على تأييد القول بالحجة والبرهان العقلي. وتخلَّصَ الخطباءُ تلقائاً من سرد الحِكم والأمثال التي كانت سائدةً في الجاهلية. إلا أنَّ بعضَ الخُطباء ومنهم أبو بكر الصديق و علي بن أبي طالب رضي الله عنهم كانوا يستشهدون ببعض الأمثال والأبيات الشعرية التي ساعدتهم على تأكيد المعاني التي أرادوا الوصول إليها.

وقد اتخذت الخَطابة في هذا العصر ختاماً إسلامياً اختلف عن ختامها في الجاهلية. حيث كان الجاهليون يكررون الجمل الأخيرة أو جملةً بعينها. ولكنَّ الخطباءَ المسلمين ظلوا يذكرون بعضَ العبارات من النصوص الدينية. أما نقاط الاتفاق بين الخطابة الجاهلية والخطابة الإسلامية فهي أنَّ معظم الخطب الإسلامية ظلت قصيرةً كالخطب الجاهلية إلا ما اقتضى المقام تطويله، حيثُ لم يكن تطويلُ الخطبة أمراً مُحبباً لا عند الجاهليين ولا عند المسلمين. وكان الجميعُ يؤيدونَ أنَّ الخطبةَ القَصيرة أدعى للحفظ والرسوخ في وجدان المستمع من الخطبة المطولة. حتى أنَّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد أوصى (**يزيد بن أبي سفيان**) حين أرسله إلى الشام بقوله: (إذا وعظتَ الناسَ فأوجز فإنَّ كثيرَ الكلام يُنسي بعضُه بعضاً).

أما نقاط الاتفاق بين خطب الجاهلية والإسلام من حيث المظهر الأدائي فهي اتخاذ بعض الطقوس الشكلية ومنها لبسُ العمامة، والاشتمال بالرداء، والوقوف على مكان مرتفع من الأرض أو اتخاذ منبر ليرتقي عليه الخطيب.[٢٢]

الدور الاتصالي من خلال الأشكال الخَطابية

بعد هذا السرد التفصيلي لتطور الخطابة بوصفها أسلوباً اتصاليًّاً في العصور المختلفة نُشير فيما يلي إلى أشكالها المتنوِّعة التي تجلَّى من خلالها دورُها الحقيقي في إحداث التغيير الذي اتسق مع أهداف علوم الاتصال.

١. الخطابة السياسية:

هي الخطابة التي تناولت شئونَ الحكم ونظام الدولة وأحوالها العامة. وهي التي استخدمتها الحكوماتُ في توجيه رعاياها إلى بعض السياسات التي فرضتها إبَّان نشأة الدولة الإسلامية. وقد شملت العديدَ من الأمور الرسالية التي تأرجحت بين بسط

---

٢٢ حنَّا الفاخوري، مرجع سابق، ص٦٩ .

السياسات الخارجية والشئون الداخلية للأفراد. وكانت معظمُ القضايا التي تناولتها الخطابة في هذا الإطار قد تركزت على ما تريده الدولة من رعاياها بغرضِ النهوض بمؤسساتها ورفاهية مواطنيها والصلح مع الدول التي بينها وبينها مناوشاتٌ أو خصومات. كما ظهرت من خلال رؤى القادة الثوريين والمفكرين السياسيين. واستمرت طوال العهود حتى خرج في عصرنا الحاضر بعضُ القادة الذين خلدت خطبهم مثل الزعيم المصري جمال عبد الناصر وخطبته في تأميم قناة السويس، والقائد الأمريكي المسلم مالكولم إكس Malcolm X عندما أراد إقناعَ الأمريكيين البيض بضرورة تغيير سلوكهم في معاملة المسلمين والملونين من الأمريكيين، والتي حشد لها طاقاته الإبداعية وملكاته الخطابية بشكلٍ جذب إليه حتى البيض، وأيضاً الزعيم إسماعيل الأزهري في خطبته التي ألقاها في البرلمان لجلاء المستعمرين البريطانيين عن السودان في عام ١٩٥٥م.

ومن غير المسلمين خطبة زعيم حركة حقوق الإنسان الأسود مارتن لوثر كنج التي أطلق عليها الناسُ اسم (عندي حُلُمْ) I have a dream بحكم مقدمتها التي تبدأ بتلك العبارة. وبذلك أصبح الدورُ الاتصالي لهذا الشكل الخطابي واضحاً من خلال تأثيره على مجرى التاريخ.

٢. الخطابة القضائية:

وهي التي تعودَ المحامون على إلقائها في ساحات المحاكم أمام القُضاة لطلبِ الحكم في أمر من الأمور محل الخلاف. وهي تختلف باختلاف المحاكم التي تُلقى فيها وباختلاف شكل القضية المُثارة، حيثُ يقومُ المحامون ووكلاءُ النيابة بدور الخطيب في هذا الشكل الخطابي[٢٣]، وتكمن قيمتها الاتصالية في مقدرتها على توجيه مسار القضية.

٣. خطب المفاخرة والمنافرة:

وهي الخطب التي شاعت في الجاهلية، وكانت ضروريةً بحكم طبيعة المرحلة البدوية التي اتخذتها أداةً لحفظ الكيان وتأليف القلوب في إطار القبيلة. وحاول الإسلام أن يُزيل هذا الشكل من أشكال العصبية، إلا أنه استعصى في بادئ الأمر. وبعدَ ذلك لفظه

---

٢٣ حنَّا الفاخوري، مرجع سابق، ص٤٥.

الناسُ تدريجياً حينَما تشربوا بروح العلاقة الجديدة التي أرساها الدين. واختفى هذا الشكلُ و لم تبقَ منه إلاَّ نماذج متفرقة كان أشهرها خُطبة عبد الله بن الزبير وخُطبة عبد الله بن عباس عندما اشتدت الخصومةُ السياسيةُ بينهما. كما كان العديد من خطباء المعارضة بعد دولة الخلافة الراشدة قد دعوا في خطبهم للانتقاص من بني أمية، وقابلهم أنصارُ الأمويين بخطبٍ أكثر التهاباً صوروا من خلالها ضلال الخارجين على الأمويين، وحيدتهم عن جادة الطَّريق. وظهرتْ العديدُ من الخصومات القبلية مثل خصومة قيس وتغلب التي ناصرت فيها القبائل اليمنية قبيلة تغلب في الشام والجزيرة. وكذلك خصوماتُ تميم والأزد في البصرة، ومعارك خُراسان التي اختلط فيها عنصرا السياسة والرباط الإثني.[٢٤]

وفي العصر الحديث لجأ إليها الزعيمُ الراحل محمد أنور السادات لتفنيد مواقف خصومه من زعماء دول الجوار الذين كالوا له سيلَ الانتقادات وقطعوا علاقاتهم الدبلوماسية مع مصر بعد زيارته الشهيرة للقدس وتوقيعه لاتفاقيات كامب ديفيد. ومنها خطبة رئيس الوزراء الماليزي محاضير محمد بجامعة أوكسفورد بالمملكة المتحدة في أبريل ١٩٩٦م أمام قادة الفكر الأوروبي بعنوان (الإسلام الذي أُسيءَ فهمُه) والتي أدَّت دوراً كبيراً في إفهام القادة الأوروبيين وجهة نظر المسلمين تجاه رأيهم في الإسلام.

٤. خطابة الوفود:

ظهر هذا الشكلُ من الخطابة مع بداية ظهور الإسلام عندما نشطت حركة الوفود إلى النبي ﷺ بغرضِ إعلان إسلامهم، حيثُ كان القادمون يخطبون أمامَ النبي ﷺ خُطباً عصماء تلونت بألوانِ الرفق واللين في كثيرٍ من الأحيان، والشدة والعنف في بعضِ الأحيان. ولكنها سارت في معظم الأحيان على خطَّة الإيجاز والإذعان للدين الجديد، والتعبير عن الرضا بما جاء به من مبادئ لإصلاحِ أمور الحياة. وقد سميت خطب الوفود لطبيعتها المصاحبة لقدوم الوفود الخارجة من ضلالِ الشرك والوثنية إلى رحاب الدين الجديد وليسَ لها مثيلٌ في العصر الحاضر بحكم انتهائها بانتهاء مرحلة صدر الإسلام.

---

[٢٤] شوقي ضيف، مرجع سابق، صفحة ٤٠٧.

٥. خطابة الحفلات:

وهي التي تُلقى عند اجتماع الناس في المحافل العامة للتهنئة أو التعزية أو المفاخرة أو أي شكلٍ من أشكال الاحتفالات التي كثرت في الدولة الإسلامية. واستمر هذا الشكلُ طوالَ العصور الإسلامية وظلَّ إلى اليوم في بعض البلاد كالعراق ونيجيريا والسودان وموريتانيا. حيثُ بقيت منه خطب المآتم التي تُلقى عند وفاة الشخصيات البارزة والمؤثرة في بلادها ومثالٌ لها الخطبةُ التي ألقاها الزعيمُ الديني محمد عثمان الميرغني في وفاة الزعيم السوداني الراحل إسماعيل الأزهري في عام ١٩٧٠م.

٦. خطابة الاستخلاف والولاية:

ظهر هذا النوع من الخطابة في الدولة الإسلامية عند مبايعة خليفة أو تولية والٍ أو عامل على أحد الأمصار. واستمرت إلى اليوم في كل البلاد الإسلامية وغيرها من البلاد. وهدفُها توضيحَ السياسات الجديدة التي يتبناها الزعيم، أو تسكين فتنة بين الموالين والمناوئين له.

وقد تميزَ هذا الشكلُ الخطابي بالقوة والصرامة في معظم الأحيان. وهي دائماً حافلةٌ بروح الرهبة التي تبعث الهول في النفوس. ولئن كانت خطب أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وغيرهما من الخلفاءِ الراشدين مليئةً بالرِفْقِ والرحمة فقد كانت خطبة زياد بن أبيه حين وُلِّيَ البصرة، وخطبة الحجاج بن يوسف حين وُلِّيَ العراق نفيرَ صدامٍ ونذيرَ عُنفٍ منذُ البداية.

٧. خطابة الفتوح:

وتسمى الخطابة الحربية لأنها تُلقى في ميادين القتال بغرض إثارة الحماسة في الجنود. وهي خطابةٌ عسكرية اعتمدت على الشجاعة وقوة البأس والإشادة بالنصر. ومن أشهرها خطبة عُتبة بن غزوان بعد فتح الابلة في عهد عمر بن الخطاب، وقد قال فيها: (أما بعد فإنَّ الدنيا قد تولت حذاء مدبرة، وقد آذنت أهلها بصرمٍ، وإنما بقي منها صبابةٌ كصبابة الإناء يصطبها صاحبها، ألا وإنكم مفارقوها لا محالةَ، ففارقوها بأحسن ما يحضركم).

ومنها أيضاً خطبة طارق بن زياد عندما فتح الأندلس وهي مشهورة في العديد من مراجع التراثِ العربي، وأيضاً خطبة ابن نباتة الفارقي التي حث فيها العرب على محاربة الروم، وهزَّ منابر حلب والموصل في عهد سيف الدولة الحمداني. واشتهر من النساء في هذا الباب عكرشة بنت الأطرش في موقعة صفين، حين قامت تحض الناس على قتال معاوية بن أبي سفيان بلهجة شديدة جاء فيها: (أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم. إنَّ الجنة لا يرحل من أوطنها، ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلها فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم همومها، وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم مستظهرين بالصبر على طلب حقهم).[٢٥]

٨. خطابة المناظرة:

وهي الخطابة التي جرت بين أطرافٍ متناقضة عندما اشتد النزاعُ والخلاف بينها. وأقربُ مثالٍ لها ما حدثَ بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، ثم بين أهل العراق وأهل الشام. وأشهر ما قيلَ فيها خُطبةُ الإمام (علي كرم اللهُ وجهه) في الخوارج عندما خاصموا رسولَهُ إليهم عبد الله بن عباس[٢٦]، حيثُ ورد فيها الكثيرُ من سحر البيانِ وقوة الحُجة وجمال العبارة التي اشتُهرَ بها الإمام علي. وهذا الشكلُ تبنته الأمم الحديثة خصوصاً الدول الغربية التي جعلته أحد عناصر حملاتها الدعائية في مواسم الانتخابات.

٩. الخطابة الدينية:

وهي تتمثلُ في خُطبة الجُمُعة وخطب العيدين التي تقومُ على الوعظ والإرشاد وتعليم أمور الدين والحياة. كما كانت مصدراً مهماً من مصادر الأخبار في دولة المدينة[٢٧]. وقد تميزت هذه الخطابة بروح الورع، والاعتماد على صدق العقيدة، وخلوص النية للدين، والحض على الأخلاق السامية. وظلت لها أصداءٌ بعيدة في نفوسِ

---

٢٥ السيد أحمد الهاشمي، مرجع سابق، صفحة ٤٩.

٢٦ حنَّا الفاخوري، مرجع سابق، صفحة ١٤٣.

٢٧ أحمد المزعنن، **مصادر الأخبار في العهد المدني** (الرياض: دار صبري، ط ١، ١٤١٠هـ)، ص ٧٧.

المسلمين طوالَ تاريخهم بحكم ارتباطها بالعبادة. وقد تأسى فيها الجميعُ بخطب النبي ﷺ، وقد برع فيها الإمام علي بن أبي طالب رضي اللهُ عنه.[٢٨]

وخلال العصور الإسلامية المختلفة برز عددٌ من الخطباء منهم الإمام الباقلاني، والشيخ أبو اليزيد البسطامي، ثم الإمام الشهيد حسن البنا، وتلميذه الأستاذ سيد قطب، ثم إمام مسجد حدائق القبة الشيخ عبد الحميد كشك، وزعيم أنصار السنة المحمدية بالسودان الشيخ أبو زيد محمد فضل الله، وزعيم الحركة الإسلامية الحديثة الشيخ حسن عبد الله الترابي، ومفتي الديار السعودية الراحل الشيخ عبد العزيز بن باز، والإمام الشيخ حسن الباقوري، والأستاذ أحمد ديدات، وغيرهم.

الخطابة في العصر الحديث

من المعروف أنَّ الخطابةَ قد ضعفت كثيراً في نهايات القرن التاسع عشر نتيجة لضعف الأدب عموماً، وعدم وجود دواعيها التي تطلبتها في الماضي. وكان ظهورُ قنواتِ الاتصال الحديثة وارتباطها بالجماهير قد أدى إلى ضعف النـــزوع إلى الخطابةِ إلا في بعض الظروف. ولذلك اقتصرت في كثيرٍ من الأمصار الحديثة على الجانب الديني من خلال خطب الجمعة والأعياد الدينية. وعلى الرغم من أنَّ المسلمين في هذه المرحلة لا سيما في مصر وبلاد الشام وشمال إفريقيا لم يستخدموا الخطابة في غير الأغراض الدينية إلا أنَّ دائرتها قد اتسعت في مرحلة سابقة أيام الخديوي إسماعيل باشا الذي شجع على تطوير استخدام الأسلوبِ الخطابي الذي واكبَ ازدهارَ المساجد والمعاهد الدينية، حيثُ تصادفَ ذلك مع مجيء الشيخ العالِم جمال الدين الأفغاني إلى مصر، والتفَّ حوله كثيرٌ من الأدباء المصريين والسوريين واللبنانيين وغيرهم، وانخرطوا في جماعته الفكرية، فألَّفَ منهم أنديةً ظلوا يتناوبون على منابرها الخطابية بشكلٍ دوري. وبذلك عادَ للخطابة رونقُها وجمهورُها الذي كاد أن يندثر.

وتناول جمال الدين الأفغاني وأصحابُهُ في خطبهم العديدَ من الأمور الدينية والسياسية والاجتماعية. وبفضلهم انتشرت الخطابة بين شباب مصر وسوريا ولبنان، ثم انتشرت في بقية البلاد الإسلامية المجاورة لهم. وانتقلت العدوى سريعاً للمنابر السياسية في قاعات

---

٢٨ محمد إبراهيم محمد إبراهيم، **الجانب الإعلامي في خطب الرسول ﷺ** (الرياض: المكتب الإسلامي ومكتبة شركة الخاني، ط ١، ١٤٠٦هـ).

البرلمانات والمحاكم. حيثُ ابتدأ حينئذ أسلوبُ النقدِ السياسي للحكومات. حيث استفاد الخطباءُ من الحصانة البرلمانية التي تمتعَ بها النوابُ دستورياً فانتهزوها فرصة سانحة للإبداع للتعبير عمَّا ما يشاءون بكلٍّ شجاعة دون خوف أو وجل.

ولكن عندما جاء الزعيمُ الثوريُ المصري مصطفى كامل اتجه بالخطابة وجهةً سياسيةً حاول من خلالها أن يعيد للمصريين والمسلمين والعرب عامةً ثقتهم بأنفسهم بعد سنوات الاستعمار الطاحنة. ولعله قد نجح في ذلك كثيراً بحكم الأرضية الممهدة للخطابة في البلاد الإسلامية وعلى رأسها مصر. وبعد ذلك ظهرت الحياةُ النيابيةُ التي شهدت كثيراً من الصراعات السياسية بين الطوائف والأحزاب المختلفة، فقوي نفوذ الخطابةِ مرةً أخرى ولكن بشكلٍ تدريجي، وأصبحَ لكلِ حزبٍ خطباؤه المفوَّهون في المحافل العامة وداخل المجالس النيابية كمجلس الأمة، والجمعية التأسيسية، ومجلس الشعب وغيرها.

ولما استيقظت الخطابة حينئذ، وعظم شأنها أصبحت طريقاً أقصر لقلوب الجماهير في سباقها المحموم بميادينٍ السياسة والمجالس النيابية ودور القضاء. وعندها اتجه الباحثون إلى إحياء المقبور من قوانينها القديمة، ونفضوا الغبارَ عن آراء العلماء فيها بحكم أنها قد عادت للحياة من جديد. وبدأ بعضُ الكتاب يُدبجون الصفحات بمدحِها والتأريخ لها، حيثُ خرجَ في بادئ الأمر كتابُ (عِلم الخطابة) للأستاذ الباحث لويس شيخو، والذي جمع فيه خلاصة ما كتبه الأدباءُ العرب والفلاسفة عن قوانين الخطابة وقواعدها وتاريخها. ورغماً عن الانتقاد الذي وُجه به هذا الكتاب إلا أنه من الكتب الرائدة في هذا المجال، ولم يسبقه كتابٌ في العصر الحديث لتوضيح هذا الأمر.[٢٩]

وفي العصر الحديث نتج عن أثر التمازج الثقافي الذي تمَّ بين الشعوب اختفاء العديد من المفردات القوية التي كانت تُستخدمُ في الخطابة وحلَّ محلها ما يمكن أن نسميه

---

[٢٩] كان أكثر المنتقدين لهذا الكتاب الأستاذ العلامة أبو زهرة الذي قال: إنَّ فيه كثيراً مما يتعلق بالمنطق، وقد وضعه مؤلِفهُ في الخطابة، كما أنَّ فيه جفافاً يجعله غير قريب للمتناول، وهو في أكثر المسائل لم يُقدم لنا رأيه بل يتركنا وسط نقولٍ وآثار.

بالاستلاف التعبيري، وهو انتقال كثيرٍ من التعبيرات المستخدمة في اللغات الأكثر انتشاراً كالإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والفارسية وغيرها. ولم يحدث لها إلا بعض التحوير اللفظي أو الترجمة الحرفية. وعلى الرغم من أنَّ الاقتباس من اللغات الأخرى قد أدخل مدلولات جديدة على لغة الخطابة إلا أنَّ أنصارَ التراث لم يُحبذوا هذا الاستخدامَ الذي اعتبروهُ تشويهاً وترهلاً لا داعي له.

وتطورت تلقائياً خُطَبُ الدعايات الانتخابية التي أوضحَ الساسةُ من خلالها برامجهم وسياساتهم التي أرادوا عرضها على الناخبين، إلى جانب رؤيتهم للعمل النيابي. وقد اشتهر هذا النوعُ من الخطابة وازدهر في عهد الأحزاب السياسية في كثيرٍ من البلاد الإسلامية وعلى رأسها مصر، ولبنان، وسوريا، والسودان. حيثُ انتقلَ الصراعُ السياسي من أعمدة الصحف والمنشورات في هذه البلاد إلى ردهات البرلمانات ودُورِ الأحزاب وساحات العمل الوطني.

عُنصر الاتصال في لُغة الخطابة

نخلُصُ مما سبق، ومن خلال تقصي النصوص التي وردت في الخطب الإسلامية إلى أنَّ الخطابة قد غيَّرتْ أسلوبَ الخطابِ الإنساني الذي أصبح وعاءً لاستيعاب العديد من المعطيات التي أفرزها هذا النمط الاتصالي. وبما أنَّ اللغة قد ظلت هاجساً لكل من تعامل مع منابر الخطابة فقد أصبحت المادةُ الكلامية هي القاسم المشترك بين أشكالها المختلفة. وبناءً عليه فقد أبرزت نفسها بإلحاح من خلال تحديد دورها في التغيير الثقافي. حيثُ يرى العديدُ من الكُتابِ ومنهم الأستاذ أحمد الهاشمي[٣٠] أنَّ الخطابة قد بقيَتْ مُتميزةً بين أهل الجزيرة العربية لقرونٍ من الزمان لم يضارعهم فيها أحد.

واعتُبرت صياغةُ العبارات البلاغية في مجال الخطابة فناً قائماً بذاته لم يتصدَّ له إلا ذوو الخبرة والدراية والموهبة الفنية المتميزة، مما اقتضى استخدامَ قوالبَ مُتميزة وأساليب رفيعة لمخاطبة الجمهور. وكان من ذلك أن ظهرَ فنُّ تصوير الأحداث بشكلٍ متجدد غلبت عليه المحسنات البديعية، والجماليات اللفظية، والعباراتُ الرنانةُ ذاتُ التأثير الملحوظ.

---

[٣٠] انظر السيد أحمد الهاشمي، **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب** (بيروت: ط ١، ١٩٨٩م).

وبالطبعِ فإنَّ كلَّ شكلٍ من هذه الأشكالِ قد حملَ فكر أمةٍ وثقافتها وأخبارها وتراثها. ولا نكاد نجد عنصراً من هذه العناصر إلا ووجدَ حظاً بين بنيً الإنسان من خلال اتصالهم ببعضهم البعض أو من خلال تأثرهم بمعاصريهم أو مَنْ سبقوهم. وليس هناك مدخلٌ إلى عقول الشعوب أفضل من هذه الأساليب الفنية المباشرة التي كثيراً ما اتخذت من اللغات قوالب لها. وذلك لأنَّ اللغات هي أول قنوات الاتصال التي عرفها الإنسانُ منذُ بدءِ الخليقة. وقد تطورت خلال مسيرته الطويلة لتعبر عن حاجاته المادية والنفسية بشتى ضروبها. ولذلك أصبحت مصدر العزة ومكمن التراث لدى الشعوب.

وبما أنَّ أدوات التعبير التي جاءت الخطابةُ على رأسها في المجتمعات الإسلامية قد نشأت لتخاطب العقل البشري، فإنها ظلَّت على مدى الأزمان تحملُ رسالتها بالأســـلوب الذى يقتضيه الفهمُ القائم على التفسير. وتغلغلت في وجدان الأفراد بالشكل الذى أرادوهُ حتى سادَ الاعتقادُ بأنَّ جميعَ البلاد الإسلامية قد جعلت من الخطابة جُزءاً مكملاً لكيانها الفكري، تُوجهه أينما شاءت، فيسير مغمض العينين مطمئناً إلى ما يَصلُ إليه من خلال الفكر المُقدم. وأصبحت الخطابةُ بذلك سلاحاً للمثقفين والعلماء والقادة تقربوا به لغيرهم من الجماعات والأفراد حتى خاضوا جميعَ معتركاتِ العلم والتغيير الحضاري الذي نجحوا في توجيهه بالشكل الذي أرادوه.

وكان من السمات الرئيسة للغة الخطابة وضوح العبارات وظهور المعاني من خلالها، بحيث يكون الغرض الذي ترمي إليه مفهوماً. ولهذا السبب تجنبَ معظم الخطباء استخدام الكلمات الغامضة والتعبيرات المجازية التي لا تقودُ مباشرةً إلى المعنى. ولذلك أيضاً اعتمدت الخطابة على الجمل القصيرة، وعدم الفصل بين أجزائها، وعدم إدخال جمل اعتراضية أثناء السياق. ومالَ مُعظمُ الخطباء إلى استخدامِ صِيغِ الاستفهام والتعجب التي شعروا بأنها تؤثر في المتلقين.

وقد أشارَ بعضُ المؤرخين إلى أنَّ الخطباءَ كانوا يستعينون بعرض القصص والأحداث التاريخية للاستشهاد بها أثناء الحديث. حيثُ وجدوا أنَّ هذا الأسلوب ناجعٌ في استمالةِ الجمهور، ولذلك أكثروا من استخدامه. وقد اختلفت الألفاظُ والعباراتُ التي استُخدمت في الخطابة بحسب المقام الذي قيلت فيه. حيثُ امتازت خطبُ التهديد والوعيد والدعوة

للقتال وإخضاع الخارجين على القانون بقوة مفرداتها وفخامة تعبيرها. ومن أمثلتها خطب الحجاج بن يوسف الثقفي التي ألقاها في أهل العراق[٣١]. أما في حالات السلم فكثيراً ما كانت الخطبُ تُعدُّ مواعظَ ونصائحَ للأمة.

أما من حيثُ الطول والقِصَر فقد اختلفت الخطابةُ من موقفٍ إلى موقف حسبَ المقام الذي قيلت فيه. فهي إذا كانت قصيرةً ومُوجزةً أو مُقتضبة لا تفتح مجالاً واسعاً للنقاش والرأي المناوئ، أما إذا كانت مُطولةً ومتعددة الجوانب فهي غالباً ما تُقدَّمُ عرضاً لمنهج، أو رأيٍ، أو مبدأ يُرجى اتباعُهُ، فيُؤجج ذلك روحَ الجدلِ والنِقاش بين المتلقين الذين يقفون ما بينَ مؤيدٍ للرأي ومُعارضٍ له.

ولذلك تميزت لغةُ الخطابة عن لغة الشارع العام ولغة الأحاديث اليومية في الدواوين المختلفة. ففي حين تتميز لغة الأحاديث العادية بالبساطة والوضوح وعدم التعقيد تتسم لُغةُ الخطابة بعمق المعاني، وبلاغة التعبير، ورصانة الأسلوب، مع الحفاظِ على وضوح المعنى المراد. وبذلك أيضاً اختلف أسلوبُ الخطابة عن أسلوب الكتابة الفنية أو الكتابة الصحفية. حيثُ تهتمُ المقالاتُ الصحفيةُ بتوضيح المعنى المراد مباشرةً دونَ تكرار العبارات بالشكلِ الذي تترعُ إليه الخطابةُ.[٣٢]

والخطيبُ عندما يكرر بعض الجمل أو العبارات باستخدام الترادف فهو يحاولُ التزامَ الأسلوبِ اللغوي الكلاسيكي الذي افترضَ التزامَ الأناة وقواعد الإلقاء فضلاً عن تقدير معطيات البيئة الثقافية القائمة آنذاك. وقد اقتضت بلاغةُ الخطابة ألا تستخدم طائفةً مُعينة من المفردات التي تُعتبرُ صعبةً على المتلقي، أو متداخلةً في تركيبها، أو نابيةً في مدلولها.[٣٣]

---

[٣١] زكريا عبد الرحمن صيام، **الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام** (القاهرة: دار النصر للطباعة، ط ١، ١٩٨٣م) ص ٧٧.

[٣٢] عبد الله عبد الجبار، ومحمد عبد المنعم خفاجي، ص ١٤٥.

[٣٣] انظر: زين العابدين حاج عبد القادر، مرجع سابق.

ومن ناحية أخرى ظلت الجمل المستخدمة في الخطابة قصيرةً وواضحة، لأنَّ الخطابةَ دائماً ما تكونَ أمام جمهور مباشر من السامعين. وهذا الشكلُ من أشكال الاتصال المباشر يُعتبر حساساً ودقيقاً، بل وخطيراً للغاية. فالكلمة التي تخرج من فم المتحدث لن تعود إلى الأبد، ولذلك فهي لا تحتملُ التردد أو الخطأ أو الحيدة عن المعنى المطلوب. لهذا السبب كلما كانت جُملُ الخطابةِ قصـــيرةً وواضحة كلما ســـهل على الخطيب تدارك هذه الإشكاليات.

وبناءً عليه تجنبت الخطابة الخوض في التفاصيل البيانية والمفردات الصعبة، وتبرأت من العبارات الاعتراضية التي غالباً ما تؤدي لتعقيد الوصول إلى المدلول.

والخطابة بهذا المفهوم تميزت على أساليب المعرفة الأخرى كالسرد الإعلامي، أو التقارير الإخبارية التي لا تستدعي وجود عنصر الاستمالة الذي يُفضي للإقناعِ في قنوات الاتصال المباشر. وذلك بحكم أنَّ التقارير الأخبارية قد تكونُ وصفاً حسياً مجسداً لإحدى صور الحياة المُشاهدة بالعين المجردة، أو توصيلاً لمعلومات مجردة، أو تحليلاً لأحداث حسب رؤية المحلل أو الكاتب. وبناءً عليه فعنصرُ المشاركة الوجدانية قد يُغنيً عن استخدام الحيل اللفظية أو التنسيق البياني لاستمالة المتلقي. ولكن في حالة الخطابة بوصفها إحدى ظواهر الاتصال ذات الخصوصية، يحتاجُ مُقدِّمُ الرسالة إلى أدواتٍ إضافية تُسهمُ في تثبيتِ المواقف الفكرية، أو السياسية، أو العقدية المطلوب إيصالها إلى المتلقي. وهذه المعطيات تجلت في العديدِ من العبارات التي أصبحت جزءاً من فن الخطابة الإسلامية.

وبالطبع فإنَّ الخطباء يختلفون اختلافاً كبيراً في حجم مَقدراتهم وشكل مَلَكاتهم الخطابية. وعلى الرغم من أنَّ هذا الاختلاف قد كان أمراً طبيعياً بحكم الفروق الفرديةِ لدى العنصر البشري، إلا أنه قد أصبح ذا مدلول مهم في تقويم قضيةِ الخطابة برمتها بوصفها إحدى وسائل الاتصال. حيثُ ثبتَ أَنَّ هناك أشخاصاً قليلي التميز في المَلَكات البلاغية والكلامية بشكلٍ عام، تركوا أثراً مهماً في سامعيهم.

وقد استفادَ منهم الجمهورُ أكثر من استفادته من آخرين كانوا أفصح لساناً، وأقدرَ على جذب انتباه السامعين. والسبب المباشر في ذلك هو حاجة المتلقي

للأمر المعروض[٣٤]. وهذا بدوره يُثيرُ قضية (الرسالة الإعلامية) بوصفها إحدى العناصر المهمة التي ظلت مثارَ دراسة على مدى سنوات نهضة علم الاتصال منذُ نشأته في عام ١٩٤٨م. حيثُ كانَ مضمون الرسالة الخَطابية عنصراً مؤثراً في دورها التاريخي. وهذا بدوره أثار عنصراً آخر هو (وحدةُ الموضوع) المراد مناقشته وإثارته من خلال الاحتفال الخطابي. حيثُ افترضَ القائمونَ على أمر الخطابة في جميعِ العصور وُجوبَ تناولِ موضوعٍ ذي قيمةٍ للمتلقي إذا أرادَ الخطيبُ أنْ يُفيد السامعين بشيءٍ لم يكن معروفاً لديهم.

ولذلك كان لا بد من تجلية الموضوع بشحذ كل العوامل المؤثرة حتى يكون ذا قيمة، واضحاً وجلياً في أذهان السامعين. ولذلك أيضاً عمد الخطباء إلى تقريب الأمور التي دعوا إليها قدر المستطاع من نفوس الناس حتى أخذوها مأخذ الجد، ووضعوها موضع الاعتبار. وإذا تتبعنا لغة الخطابة في فترة ما بعد دولة الخلافة الراشدة نجدها تتزعُ إلى الاختزال واختصار الجمل مما جعلَ ذلك عُرفاً من أعرافها[٣٥]. ولعلَّ ذلك قد فرضته طبيعة الاستخدام اللغوي في تلك الفترة التي ازدهرت فيها الفنونُ اللغوية أكثر من ذي قبل. لذلك أيضاً اختلفت لغةُ الخطابة القديمة عن اللغة المعاصرة لأجهزة الاتصال خصوصاً الراديو والتلفاز والسينما بحكم ما جدَّ من اهتمامات فرضتها روحُ العصر.

وكان القائمونَ على أمرِ الخطابة قد اشترطوا أن يكونَ مضمونُ الخطبة مُرتباً ترتيباً منطقياً يبدأ بالمقدمة، ثم العرض، ثم الاستدلال، ثم النتيجة. وهذا الترتيب الذي التزم به جميعُ الخطباء جعل من الخطابة فناً جاداً أعان المتلقين على مُتابعتها، كما جعلَ الخطباءَ ينجحون في خلق التأثير الذي توقعوه في سامعيهم على مر الأجيال.

وأكثر من هذا أنَّ الانضباط والالتزام بأسس هذا النمط الفني جعل من الخطابة مادةً خصبة للنقاد والدارسين في مختلف البلاد الإسلامية. وتأكيداً لذلك قال جوستاف لوبون Jostaf Lobon في كتابه روح الاجتماع:

(إنَّ البراهين والأدلة لا تأخذ من نفوس الجماعات، ولهذا كان الخطباء الذين يحترفون فنَّ التَّأثير يخاطبون شعورها دون عقولها. لأنه لا سلطان لقواعد المنطق عليها،

---

[٣٤] السيد أحمد الهاشمي، مرجع سابق، صفحة ٧٧.

[٣٥] زكريا عبد الرحمن صيام، مرجع سابق، صفحة ٧٣.

فلأجل إقناع الجماعة ينبغي الوقوف أولاً على المشاعر القائمة بها والتظاهر بموافقتها فيها ثم يحاول الخطيب تعديلها بموازنات صغيرة عادية).

الخطابة بوصفها وسيلة اتصال

إذا تأملنا من خلال هذا السرد نماذج الخطابة الكلاسيكية في العالم الإسلامي لوجدنا فيها أساليب مختلفة للعطاء تراوحت بين الدعاية، والإعلام، والإقناعِ، والإفهام، والتعليم، والتربية، وتغيير السلوك البشري. ولو نظرنا إليها من زاوية أخرى لوجدناها تمثلُ السلاح الأمضى لتنفيذِ الأهدافِ والسياسات، والراية المرفوعةً في كل المحافل باسم الدين، أو باسم الحكوماتَ، أو باسَم الوطن الذي تُبثُّ فيه الخطبُ على العامة من أبناء الدولة، وربما بالثلاثة معاً.

ولو تمعنَّا في أسباب ذلك لوجدناها عديدةً ومتشعبة، ولكنَّ قاسمها المشترك هو تبني أسلوبٍ فاعلٍ ومؤسسٍ لنشر المعارف والعلوم والأفكار. وبما أنَّ انتشارَ الإسلام ذاتِه قد كان سريعاً بشكلٍ أدهش كل القاطنين في جزيرة العرب وما حولها فقد أثار ذلك حميةَ الجدل والمنافسة والمعارك الكلامية بغرضِ المعرفة والتطور الذي عمَّ جميعَ أساليبِ الحياة.[٣٦]

وفي الوقت نفسه كان نزولُ القرآنِ الكريم بأساليبَ جديدة ومعانٍ مختلفة ورؤىً متجددة قد بعث في نفوسِ البشرية روحاً جديدة من الطموحِ والتفنن في الاقتباس والاستشهاد بما جاء في كتاب الله. فجاءت الخطابةُ أداةً رفيعةً ومؤثرة لتغيير حال الجماعاتِ والأفراد في زمانٍ قلت فيه وسائلُ الاتصال الأخرى وانعدمت فيه تقنياتُ العصر الحديث، فأصبح الخطيبُ هو جهاز الإعلام المتكامل الذي وضع لبنات التغيير الفكري والاجتماعي بشكلٍ لم يَقِلْ عما فَعلتهُ وسائلُ الاتصال الجماهيرية في زماننا الحاضر.

ولهذا السبب فإننا رأينا أنَّه من الواجب أن تُدرِجَ الخطابةُ في سلك وسائل الاتصال. وهذا الإدراجُ سيُغني الباحثين والدارسين والممارسين لمهنة الإعلام من كثيرٍ

---

٣٦ السيد أحمد الهاشمي، مرجع سابق، صفحة ١١٢.

من الجهد الذي يبذلونه الآن وهم يُحاولون التأريخَ لعلم الاتصال. ثم إنَّ علماء الاتصال والعاملين في حقله سيجدون الحلقة المفقودة في ربط أساليب الاتصال القديمة بالأساليب الحديثة، خصوصاً وأنَّ علم الاتصال قد لهث كثيراً في البحث عن النماذج الدامغة لتبرير أهمية التغذية الراجعة Feedback بوصفها إحدى أهم عناصر العملية الاتصالية. وفي هذا الإطار لن يجد الباحثون أسلوباً اتصالياً أفضل من الخطابة الإسلامية لدراسة رد الفعل أو التغذية الراجعة وأثرها في المتلقين خصوصاً عندما يكونون جماعةً في حجم أُمة.

وأخيراً فإنَّ الخطابة هي درع الإسلام القوي الذي يجعلنا نتمسك بحقنا في وضعها بموضعها الصحيح وسط وسائل الاتصال حتى نؤكد تأثير الإسلام التاريخي على الشعوب، وأنه قد وضعَ اللبناتِ الأساسيةَ لعلم الاتصال من خلال توظيفه لهذا الفن الرفيع، وليس الغربيُّون الذين يدَّعون ذلك زوراً وبُهتاناً. واللهُ وليُّ التوفيق، وهو من وراء القصد.